

بلاغة الحجاج في مناظرة الأرض والسماء

للشيخ محمد بن محمد المبارك الجزائري الدمشقي

دراسة تداولية

Argumentative eloquence in the debate of earth and sky

(Sheikh Mohammed Ben Mohammed El Moubarek

El jaziairi Addemachki)

بلقاسم دفة

سعاد بن الزيب*

جامعة باتنة 1

جامعة باتنة 1

مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة

belkacem.deffa@univ-batna.dzbendib.souad@univ-batna.dz

تاريخ القبول: 2025-05-22

تاريخ الإرسال: 2025-02-15

ملخص:

تسعى هذه الورقة البحثية إلى الكشف عن البنية العميقة للمناظرة الأدبية، وتجلية آلياتها الحجاجية باعتبارها شكلا من أشكال الخطاب الذي يسعى إلى كسب الاستحقاق والجدارة، ومن ثمة فالمناظرة تضطلع بوظائف كثيرة فهي ليست مجرد فن أدبي، بل هي خطاب لغوي فريد يرتبط أساسا بالجدل والحوار، لذلك فمن الطبيعي أن يحمل شحنات إقناعية بآليات حجاجية خاصة، يتم تحليلها من منظور تداولي حجاجي لإبراز ما تكتنزه من حجج تسعى إلى إبداء الاتفاق وتحقيق الإقناع.

ومن هذا التصور جاءت أهمية هذه الدراسة التي تقوم على تطبيق نظرية الحجاج على المناظرة المتخيلة التي أجراها الشيخ محمد بن محمد المبارك الجزائري بين الأرض والسماء. الكلمات المفتاحية: حجاج؛ مناظرة؛ جدل؛ حوار؛ إقناع؛ تداولي.

Abstract:

This research paper seeks to reveal the deep structure of literary debate, and to clarify its argumentative mechanisms as a form of discourse that seeks to gain merit, Hence, debate has many functions. It is not just a literary art, but rather a unique

*-المؤلف المراسل.

linguistic discourse that is mainly related to debate and conversation, so it is natural that it carries convincing charges with special argumentative mechanisms, It is analyzed from an argumentative pragmatic perspective to highlight the arguments you have that seek to express agreement and achieve persuasion.

From this perception came the importance of this study, which is based on the application of argumentative theory to the imaginary debate conducted by Sheikh Muhammad bin Muhammad Al-Mubarak Al-Jazaery between the earth and the sky.

Keywords: argumentative; debate; dialectic; conversation; convince; pragmatic.

مقدمة:

اقتضت هذه الورقة البحثية تقسيم الموضوع إلى: إطار نظري ويضم الإحاطة بالمركبات الأساسية للموضوع في عرض موجز تضمن تعريفا للحجاج والغاية منه باعتباره فعلا لغويا يسعى للتغيير والتأثير، ثم التعريف بفن المناظرة وبعض المعارف التي وجب كشف النقاب عنها من شروط وخصائص. أما الإطار التطبيقي فيضم أهم الآليات الحجاجية التي تضمنتها وهي: حجاجية الاستشهاد الذي جمع بين حجاجية الشاهد القرآني والشاهد من الحديث، والشعر والأمثال من جهة، ومن جهة أخرى حجاجية الاستفهام والنفي والإيقاع.

1. مفهوم الحجاج وأهدافه

1.1. الحجاج من المعنى اللغوي إلى الدلالة الاصطلاحية

يشير الأصل اللغوي للجذر (حجج) في لسان العرب إلى المعاني التالية:

- القصد: ف «الحج: القصد. حج إليه فلان أي قدم؛ و حجه يحجه حجا: قصده [...] ورجل محجوج أي مقصود [...] والحج: قصد التوجه إلى البيت بالأعمال المشروعة فرضا وسنة؛ تقول: حججت البيت أحجه حجا إذا قصدته وأصله من ذلك»¹.

- المغالبة والمخاصمة والمنازعة بالحجة قصد الظفر: حيث قال الأزهري: «ومن أمثال العرب: لج فحج: لج فغلب، من لاجه بحججه. يقال حاججته أحاجه، حجاجا ومحاجة حتى

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مادة [ح ج ج]، دار صادر، بيروت، مج2، ص 226.

حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها [...] وفي حديث الدجال: إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه أي محاجه ومغالبه بإظهار الحجة عليه [...] والتحاج: التخاصم»¹.

- الجدل والتجادل: لما ورد في اللسان «وهو رجل محجاج أي جدل»²؛ يظهر من الدلالة المعجمية الثالثة أعلاه أن من معاني الحجاج أيضا الجدل الذي هو «مقابلة الحجة بالحجة»³ لإفحام الخصم وطلب الظفر. فكلمة الجدل تعني «المنازعة بمعاوضة القول، أي هو الكلام الذي يحاول به إبطال ما في كلام المخاطب من رأي أو عزم عليه: بالحجة أو بالإقناع أو بالإبطال»⁴ وهو يتطلب قدرة كلامية وبراعة حجاجية لإلزام الخصم والتغلب عليه في مقام الاستدلال.

- الحجة والدليل والبرهان: وفي ذلك يقول ابن منظور: «وفي حديث الدجال: إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه أي محاجه ومغالبه بإظهار الحجة عليه . والحجة : الدليل والبرهان»⁵.

نستنتج من خلال هذه الدلالات ما يلي:

1- طبيعة هذا الفعل عبارة عن نشاط إنساني.

2- وسائله متمثلة في الحجة والبرهان، والدليل.

3- سياقه والظروف المحيطة به هي الخصومة والمنازعة.

4- الهدف الغاية من هذا النشاط وهو الفوز والغلبة.

الدلالة الاصطلاحية: لا يخفى عن ذي بصيرة أن مفهوم الحجاج قد تجاذبته حقول ومجالات معرفية متعددة، ليشمل كل أنواع الخطاب الإقناعي في شقيه الشفوي والكتابي، ولعل المفهوم الذي قدمه الدكتور طه عبد الرحمان "أقرب إلى سياق البحث الذي يركز

¹ - المرجع نفسه، ص 228.

² - المرجع نفسه، ص 228.

³ - ابن منظور، لسان العرب، مج 11، ص 105.

⁴ - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، (د.ط)، ج 15،

1984، ص 348.

⁵ - ابن منظور، لسان العرب، مج 2، ص 228.

أساساً على دراسة الحجاج ضمن فن المناظرة. فالحجاج حسبه هو «كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها»¹؛ فالخطاب الحجاجي بهذا الاعتبار خطاب يستهدف التوجه إلى الغير للإفهام وهو مقترن بقصدين: قصد الادعاء عند المتكلم؛ فالمدعي حسبه هو «عبارة عن المخاطب الذي ينهض بواجب الاستدلال على قوله»²، وقصد الاعتراض الذي هو من حق المستمع، والمعترض هو «عبارة عن المخاطب الذي ينهض بواجب المطالبة بالدليل على قول المدعي»³ حيث إن الأصل في هذا الخطاب: الحوار المبني على الاختلاف وهذا لا يقوم إلا بين طرفين مختلفين هما "المدعي والمعترض" وبهذا يكون الحجاج وسيلة تواصلية تفاعلية نفعية ذات طبيعة تداولية جدلية.

2.1. أهداف الحجاج

إن الحديث عن الخطاب الحجاجي يعني البحث عن بلاغة هذا النوع من الخطابات والكشف عن أهدافه وغاياته التي تتوزع على مستويات ثلاث هي:

أ- **العاطفي الانفعالي:** ويستدعي ما يسعى بوظيفة التأثير، ولها وسائلها الخاصة لتحقيق الاستمالة التي تكون خادمة للتأثير، وهو ما أطلق عليه "ريبو" (Ribot) "منطق العواطف" (logique des sentiments) إذ أن «فن إمالة الإرادة (l'art de persuader) يتطلب اللباقة والرهافة وموهبة التوغل في النفوس لإدراك ما يمكن أن يعني السامع أو يسيء إليه من أجل معرفة طمأننته وإثارة اهتمامه وفي الأخير استدرجه»⁴؛ وهذا لا يعني تغييب الجانب العقلي فلولا هذا الأخير لأصبحت المحاجة نوعاً من السفسطة والخداع.

ب- **العقلي:** ويحقق وظيفة الإقناع عبر وسائل خاصة تخاطب العقل عن طريق الاستدلال العقلي، وقد أشار "ابن رشد" من خلال كتابه "تلخيص الخطابة" إلى أن الكلام المقنع يرتبط

¹- طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1998، ص226.

²- المرجع نفسه ، ص225.

³- المرجع نفسه ، ص225.

⁴- روبير بلانشي، الاستدلال، تر: محمود اليعقوبي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 1424هـ-2003م،

ارتباطا وثيقا بالمنطق، وبذلك يستند هذا الإقناع إلى آليات عقلية تتم عن طريق الاستقراء والقياس.

ج- السلوكي(الفعل): أو الاقتناع العملي كما يطلق عليه الدكتور "طه عبد الرحمان" لقد كان لأعمال فلاسفة اللغة من أمثال "ج.ل.أوستين" و"ج.ل. سيرل" أثر كبير في توسيع نطاق فعالية الحجاج إذ يهدف إلى تحقيق عمل، أو تغيير سلوك فإذا ما نفذ الحجاج إلى قلب وعقل المتلقي وانعكس ذلك على سلوكه يؤكد على نجاعة الفعل الحجاجي. وقد نبه الدكتور "طه عبد الرحمان" إلى أن الاقتناع العملي أو التغيير السلوكي ليس بأمر مضمون حصوله أو إلزام المخاطب به، لأنه خاضع لقدرة المتكلم على اختيار الأساليب الفعالة والقادرة على تغيير مواقف الآخر.

2. المناظرة: المفهوم والشروط والخصائص

1.2. المناظرة من المعنى اللغوي إلى الدلالة الاصطلاحية

- أ- لغة:

مصدر الفعل الرباعي (ناظر) المزيد بألف بعد فائه، ومن المعاني التي يؤديها هذا الفعل معنى المشاركة وهي «الدلالة على أن الفعل حادث من الفاعل والمفعول معا»²، فإذا قلنا ناظرزيد عمرا كان المعنى أن فعل المناظرة تم بين طرفين هما العارض والمعترض حول موضوع مشترك لإظهار الصواب.

وجاء في لسان العرب لابن منظور «التناظر: التواضع في الأمر. ونظيرك: الذي يراوضك وتناظره، [...] والنظير: المثل، وقيل المثل في كل شيء. وفلان نظيرك أي مثلك لأنه إذا نظر إليهما الناظر رأهما سواء. ونظير الشيء مثله. وحكى أبو عبيدة: التَّظَرُّ والنَّظِيرُ بمعنى مثل والند والنديد [...] والنظائر: جمع نظيرة: وهي المثل والسببه في الأشكال، الأخلاق،

¹-انظر: طه عبد الرحمان، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص65.

²- عبده الراجحي، التطبيق الصرفي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2000م، ص35.

والأفعال والأقوال [...] ويقال ناظرت فلانا أي صرت نظيرا له في المخاطبة. وناظرت فلانا بفلان أي جعلته نظيرا له¹.

وقد وردت المناظرة في غريب القرآن بمعنى «المباحثة والمباراة في النظر، واستحضار كل ما يراه ببصيرته»² وهو ما يعني بأن المناظرة تقوم على التدبر والفحص وجمع الأدلة، ومن هنا تتجلى العلاقة بين الحجاج والمناظرة.

ب- اصطلاحاً:

وردت المناظرة عند الجرجاني في قوله: «المناظرة اصطلاحاً هي النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب»³

«فالمناظرة حوار يهدف إلى إظهار الصواب بتقليب الرأي واستجلاء الغامض، وطرح الممكنات وهذا لا يعني أن يستلزم أحد المتناظرين لصالح، (أن تناظر أخاك) فهنا تسود الثقة ولكن دون أن تكون سطوة واستكراها، فحق المجاوبة ثابت»⁴ فالمناظرة بهذا المعنى تعني الحوار دون عنف.

والمناظرة عند طه عبد الرحمان «كل خطاب استدلالي يقوم على المقابلة والمفاعلة الموجهة»⁵ إذ تقتضي هذه المقابلة مواجهة بين العارض والمعارض وتفرض عليهما حقوقاً وواجبات متبادلة من أجل تحقيق التغيير والإقناع ما يجعل منها عملية مفاعلة. وبالتالي

¹ - أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، المجلد 5، مادة (ن ظ ر)، دار صادر، بيروت، (د س ن)، ص 219.

² - الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج 1، مكتبة نزار مصطفى الباز، ص 644.

³ - الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتصدير، القاهرة، ص 195.

⁴ -

⁵ - طه عبد الرحمان، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 2، 2000م، ص 66.

فإن المناظرة عنده «ممارسة حوارية الغرض منها الاشتراك في الوصول إلى الحق»¹، وقد جعلها من صور الحجاج لأنها تنبني على مبدأي الاعتراض والادعاء الحجاجيين.

مما سبق يمكن القول إن المناظرة هي: أسلوب منهجي يقوم على الاستدلال لإظهار الصواب والبحث عن الحقيقة في مختلف أصناف المعرفة الإنسانية من أجل تعميقها وتوسيعها. كما يمكن وصف المناظرة بكونها مبارزة لغوية سلاحها البلاغة والمنطق والشعر.

2.2. شروط المناظرة وخصائصها: للمناظرة شروط تحكم فعاليتها يمكن إجمالها في ثلاثة شروط²:

«الأول: أن يجمع بين خصمين متضادين أو متباينين في صفاتهما بحيث تظهر خواصها كالربيع والخريف والصيف والشتاء.

الثاني: أن يأتي كل من الخصمين في نصرته لنفسه وتفنيد مزاعم قِرنه، بأدلة من شأنها أن ترفع قدره وتحط من مقام الخصم، بحيث يميل بالسامع عنه إليه.

الثالث: أن تصاغ المعاني والمراجعات صوغاً حسناً، وترتب على سياق محكم ليزيد بذلك نشاط السامع وتنمي فيه الرغبة في حل المشكل.» نخلص إلى أن شروط المناظرة متوقفة على وجود:

1- المتعارضين: إذ تقع المناظرة بين شخصين متواجهين مختلفين في قضية معينة دينية أو سياسية أو فكرية... إلخ وهذا التعارض أساسه الجدل والاختلاف .

2- الأدلة من أجل إثبات الحقيقة أي اتباع الطرق الاستدلالية المناسبة للإقناع .

3- السبك الحسن للمعاني والترتيب الجيد لها ليكون أسبق للفهم وأسهل للإثارة المتلقي واستحواذه.

إن هذه الشروط من شأنها أن تضع المناظرة في مسارها الصحيح وأن توصلها إلى غايتها المنشودة وهي إظهار الصواب والابتعاد عن الوهم، ومن أجل ذلك فهي تتبع طرقاً خاصة في الاستدلال لتكون بذلك المناظرة وسيلة العقل السليم.

تحيلنا هذه الشروط إلى بعض خصائص المناظرة وهي:

1-الندية: إذ تقتضي المناظرة "الندية" وهي المواجهة الخطابية بين طرفين حول موضوع مشترك يفرض تبادلًا للأدوار الكلامية على أساس الرد والقبول.

2-الحوارية: يتطلب بناء المناظرة على وجود المتحاورين المتعارضين في المخاطبة، خاصة إذا تضمن الحوار ردًا ونقضًا وتفنيديًا للحجة، وبذلك تكون حوارًا منتجًا وليس عقيمًا.

3- مبدأ التكافؤ: فعند استنطاق المعنى اللغوي للمناظرة نجد أنها مشتقة من "النظير" وهذا يحيلنا إلى أن أطراف المناظرة لابد وأن يشتركا في المسلمات، وأن يكونا على قدر من التكافؤ الذي يسمح بإجراء المناظرة، فبذلك يتحقق التواصل ويثمر الحوار ليقترّب إلى الحقيقة والصواب وهو ما أشار إليه "محمد باشا العيادي" من خلال كتابه فن المناظرة في الأدب العربي، لذلك فالمناظرة «تقتضي أن يأخذ المتكلم بعين الاعتبار حجج المخاطب الذي كان بدوره متكلمًا في مرحلة سابقة من المناظرة وأن يرد عليها بحجج أخرى تكافئها في القوة»³

4-الاختلاف: تنبني المناظرة على الاختلاف في مقارنة قضية معينة سواء على المستوى الفكري أو العقدي أو العلمي وغيرها أي أن السياق العام للمناظرة يجري حول قضية خلافية معينة هي محل صراع والتي قد تكون ذات طابع ديني أو سياسي ...

5-الاحتجاج: فالرابط بين المناظرة والاحتجاج هو الإقناع الذي يتم بشحن ترسانة من الحجج المختلفة، ويجب أن يتأكد المناظر من صحتها وسلامتها حتى لا يقع في الزلل.

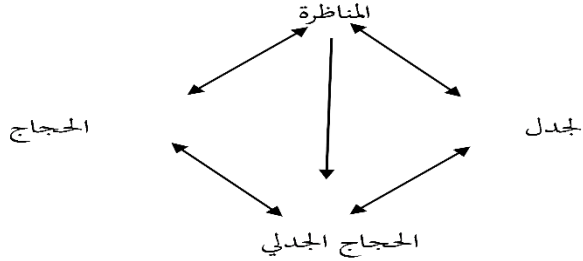
ولقد أثبت "ابن خلدون" الصفة الحجاجية للمناظرة وبين علاقتها المتداخلة بالجدل وعلّة هذا التداخل أنها تقع بين شخصين يضفي التفاعل والاستدلال سمة أخرى على هذا الحوار وفي ذلك قوله «وأما الجدل وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم، فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعا وكل واحد من المناظرين في

¹ - المرجع نفسه، ص 22.

² - السيد أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، ج 1، ط 27، المكتبة التجارية الكبرى، مصر 1389هـ-1969م، ص 224.

³ -صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط 2، 2007م، ص 295.

الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج ومنه ما يكون صواباً ومنه ما يكون خطأ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول¹. فارتباطها بالجدل كونها تسعى إلى إثبات التميز والتفرد والتفوق على الطرف الآخر من جهة والاحتجاج من جهة أخرى علة ذلك تقديم الأدلة والحجج المناسبة لكل طرف لإثبات صحة رأيه يجعلها أقرب إلى الاحتجاج الجدلي.



6- الغاية التي تتميز بها المناظرة عن كافة الممارسات الحوارية الأخرى هي الوصول إلى الحقيقة وتنمية المعرفة؛ إذ تختلف على سبيل التمثيل عن المجادلة كون هذه الأخيرة تسعى إلى إثبات وجهة نظر والإقناع بها ودحض رأي الآخر.

7- تعدد مجالات المناظرة: فهي تتراوح بين مجالات ومواضيع مختلفة منها ما هو ديني ومنها ما هو سياسي ومنها ما هو فلسفية وآخر أدبي...

3. الآليات الحجاجية في مناظرة الأرض والسماء: ولمقاربة تطبيقية لما ورد في الجانب النظري نحاول أن نعتمد على استنطاق الآليات الحجاجية الواردة في مناظرة بين الأرض والسماء

1.3. ماهيتها: تعد هذه المناظرة من المناظرات الخيالية التي يتداخل موضوعها بأطرافها فتتجادل وتتساجل وقد أجراها الكاتب بين السماء والأرض؛ إذ تعد الأولى -السماء- المتناظر الأول وصاحبة الفضل ومالكة التفرد وبها افتتحت المناظرة، حيث نلاحظ أن الشيخ محمد

¹ -عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الشعب، ص422.

بن محمد المبارك الجزائري قد رسم فضاء حججيا مؤثرا ومقنعا لدى المتلقي بين الأرض والسماء من خلال ما ساقه من الأدلة النقلية والعقلية والبلاغية بذكر مناقب ومفاخر كل منهما بأوضح بينة وأقوى حجة والتعريض بالذم الواحد منهما للآخر وتبيان مساوئه إلى أن بان الحق، ونزعت الأرض عن مناظرتها، وعجزت عن مجاراتها في بسط الحجج، فانتهى الجدل ببسط العتاب وطلب السلم وإعلان الصلح بين الأُحبة؛ لأن الألفة بينهما قديمة حتى لا يشمت الأعداء بخصامهما. وقد انبنت هذه المناظرة على الحجة ونقضها، الذي كان نتاجا لشرط مهم من شروط التأدب في التناظر وهو حسن الاستماع الذي من خلاله يتجلى فساد الحجة فتكون عوناً على استمرار المناظرة. وقد استخدم الطرفان خطاباً دينياً يتكئ على أدلة نقلية من القرآن الكريم وهو ما يقوي حججهم في تمرير القول لإثبات المزية والتفرد، ومن ثم إفحام الخصم، كما قامت هذه المناظرة على مجموعة من الأدلة النقلية كالحديث ومقتطفات من الأبيات الشعرية. وأخرى عقلية تمثلت في :

2.3. الأدلة النقلية: اعتمدت هذه المناظرة على الحجة النقلية المتمثلة في القرآن الكريم والحديث النبوي ومقتطفات من أبيات شعرية...، ووظفت من أجل الإثبات ودفع الخصم نحو التصديق بنص ذي سلطة حججية لا يمكن دحضها أو الشك في مصداقية مضمونها. وعليه لا يمكن لأي مناظرة أن تستغني عن ظاهرة الاستشهاد (Illustration) في محاجة الخصم، فهي من الدعامات القوية التي تحقق وظيفة تأثيرية إقناعية وذلك باستعمال حجج من القرآن الكريم أو الحديث أو الشعر، لذلك فهي تختلف درجاتها في القوة، ويطلق على هذا النوع من الحجج غير الصناعية كما يسميها أرسطو والحجج الجاهزة حسب "محمد العمري" وهي «تكتسب قوتها من مصدرها ومن مصادقة الناس عليها وتواترها»¹ لذلك كان من الأساسيات البحث عن الأبعاد الإقناعية للشاهد القرآني وظلاله المعنوية، وعلى

¹ -محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2002م،

هذا الأساس اعتبر مكوناً أساسياً في المناظرات يضيف سمة حجاجية وسلطوية بأبعاد جمالية تستميل المتلقي وتقنعه.

- حجاجية الشاهد القرآني: المدونة التي نحن بصدد تحليلها حافلة بالاستشهادات، فمن الحجج النقلية ما استدلت به السماء من القرآن الكريم والتي كانت مناسبة للمقام من أجل إبراز منح السماء الجليلة، والغرض منها هو التذكير بعلو منزلتها وتفردا بالرفعة وهو ما أثبتته بأصح البراهين والدلائل، وقد استمدت هذه الحجج قيمتها الحجاجية مما تميز به القرآن الكريم من: قدسيته، ومصداقيته وعموميته، ومن ثمة إعجازه اللغوي والبياني، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لذلك فهو منبع الاستشهادات في الثقافة العربية الإسلامية. ومن الأمور التي تستحق الذكر في هذا المقام هو أن الاستعمال الجيد للشاهد القرآني يضمن فاعليته، فكلما كان مناسباً للمقام ألقى بظلاله على المتلقي.

قبل أن تخوض السماء غمار هذه المناظرة افتتحت كلامها بآية قرآنية كريمة مشحونة بالمعاني أشادت من خلالها برفيع قدرها ورفعة مكانتها ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجا﴾¹؛ لعب الشاهد القرآني في هذا المقام دور الحجة المثبتة التي تعضد موقف السماء في التأكيد على سموها ورفعتها وتفردا بهذه المنح الجليلة التي فضلها الله بها، فلا يستطيع أحد التشكيك بذلك؛ لأن للقرآن سلطانه، لذلك عمدت السماء إلى ذكر هذا الشاهد في المقام الأول حتى تقطع دابر الشك وتحسم المناظرة لصالحها في طورها الأول، كما عمدت إلى ذكر حجج أخرى مفصلة للشاهد القرآني ومؤكدة له، فاستمدت

¹-سورة الفرقان، الآية 61.

معانيها من معاني القرآن الكريم لتؤول إلى نتيجة واحدة هي : التفرد بالرفعة وعظمة المنزلة التي منحها الله إياها من ذلك:

ح1-تبسط إليها أيدي الذلة والافتقار.

ح2-ينزل إليها الرب كل ليلة .

ح3-حصانتها؛ فهي المحصنة بجنود الرفلة تقذف من يسترق السمع والأخبار بشهاب ثاقب.

ح4-قداستها؛ إذ لا يوجد في حرمها عاص ولا شيطان.

ح5-خالية من النقائص ومنزهة من العيوب.

ح6-تفضيلها بالقسم والقسمة الجليلة.

ح7-جعل فيها البروج؛ وهي دلالة على سعتها وجمالها.

ن= السماء رفيعة القدر ولها أن تفتخر بذلك.

كل هذه الحجج قد شحذتها السماء من أجل التأكيد على نتيجة واحدة ذكرتها في قولها: «يحق لي أن أجربها ذيول العزة والافتخار[...].» فلي العز الباذخ، والمجد الأثيل الشامخ، لتفرد بالرفعة والسمو وعلو المنزلة دون غلو¹؛ إذن فقد استدلت السماء بالشاهد القرآني الذي استفتحت به مناظرتها الراقية لتبين مكانتها العالية، واستتبعته بمجموعة من الأدلة الموضحة والمفسرة لهذا الشاهد القرآني والمؤكد في الوقت ذاته على سموها؛ حيث إن الله لا يقسم بشيء إلا لعظمته، والأمر نفسه بالنسبة للسماء، فقد فضلها لأهميتها، فجعل فيها البروج وهي الشمس والنجوم الضخمة التي يهتدى بها في ظلمات البر والبحر وفي ذلك إشارة واضحة لاتساعها وجمالها كالقلعة المحصنة بجنود

¹ - محمد المبارك، غريب الأنبياء في مناظرة الأرض والسماء، من كتاب: المفارقات والمناظرات، تح: محمد حسان الطيان، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ-2000م، ص88.

تحميها من كل شيطان مارد، لذلك فقد أتحفت بأوفر القِسم؛ لأنها نالت حظاً وافراً من الفضائل كما تضمنت هذه العبارات إشارة إلى روعة خلق الله.

ولأن «لا سلطة تَعْلُو القرآن»¹ فقد برعت السماء في توظيف الشاهد القرآني الذي سعت من خلاله إلى الهجوم الإقناعي ومما ذكرته قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ﴾²؛ نستشف من خلال توظيفها لهذا الشاهد القرآني أن الأرض قد زين لها أن تفضل العاصي (الأرض) على المعصوم (السماء)، إلا أنهما لا يستويان؛ لذلك فهو ادعاء باطل سببه غرور الأرض

¹-عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1434هـ-2013م،

ص237.

²- سورة فاطر، الآية 8.

وجحودها إذ ليس لها من الفضائل والفواضل كما للسماء. لعب هذا الشاهد دور الدحض فلا يحق للأرض بعده إلا الصمت.

نستنتج مما سبق أن الشاهد القرآني هو العملة المطلوبة من أجل:

- إثبات المصادقية، وتعزيز التفوق والسلطة لأن «التنقيب في القرآن عن شواهد تعزيزية وإيرادها في مقام المناظرة ليس إجراء نقليا بل هو توسع عقلائي وتعليلي يجعل المنع والإثبات على حد سواء مستنديين أي مبنيين استدلاليا وإقناعيا»¹.
- رفع ذات المناظر إلى درجات أعلى.
- تمنح المناظر قوة سلطوية يستمدّها من مصادر الشاهد.
- تفوق المناظر اللغوي والبياني.
- يشتغل الشاهد القرآني كحجة مثبتة تعزز القول وتثبتته وكحجة مبطللة تفتح الطريق نحو الإفحام.

- يمنح صبغة الإجماع العام والنهائي، فلا يكون بعده إلا الصمت والتسليم.

-حجاجة الشاهد من الحديث: ومما جاء في هذه المناظرة قول الرسول صلى الله عليه وسلم «إنما الأعمال بالنيات»² وقد جاءت على لسان الأرض من أجل «الحث على إخلاص النية»³، فهذا الشاهد يحمل أبعادا تعليمية وأخلاقية، والأكثر من ذلك يعد قوة حجاجة أكدت على أن الحسنه قد تتحول إلى سيئة بسبب التكبر والغرور. ومنه فقد نهت الأرض السماء إلى أن الغلو في بث الفضائل قد يتحول إلى سيئة بسبب الاستكبار. ويمكن تلخيص الهدف الحجاجي من توظيف هذا الشاهد فيما يلي: لا عبرة للعمل إلا بالنية المقترنة به؛ لأن الحكم على الأعمال الحسنه أو السيئة يكون من خلال النية (القصد)، ومنه فإن

¹-عبد اللطيف عادل، مرجع سابق ص237.

²محمد المبارك، غريب الأنباء في مناظرة الأرض والسماء، من كتاب: المفارحات والمناظرات مرجع سابق، ص90.

³-محمود إسماعيل صيني وآخرون، معجم الأمثال العربية، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط1، 1996م، ص38.

الأعمال الحسنة التي قامت بها السماء انقلبت إلى أعمال سيئة لأن مقصدها كان الافتخار والاستكبار.

ونجد الأرض تتخذ من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم حجة مؤكدة إذ وصفت كلامه بأنه «أصدق من نطق وأعدل من حكم»¹ وفي ذلك إشارة إلى قيمة هذا الشاهد واعتباره حجة دامغة لا تستطيع السماء أن تشكك في صحته، ومما أوردته من كلام رسول الله قوله «لولم تذبوا لجاء الله بقوم يذنبون ليغفر لهم»²؛ ومن الوظائف الحجاجية التي أداها هذا الشاهد الذي يمكن اعتباره دعوة استفزازية لإعمال العقل والوصول إلى:

- الحكمة الباهرة والمشیئة النافذة في أن يجعل الله على الأرض من يعصيه فيتوب ويستغفر الله، لأن الله يحب من عبده مقام العبودية من جهة، ومن جهة أخرى التأكيد على بعض صفات الله كالغفور والعفو...

- حجة مقدمة من أجل إثبات دور الأرض في احتضان الإنسان، فيكون الإنسان في الأرض كالملائكة في السماء، وفي ذلك إشارة إلى مكانتها.

- أثبتت الأرض بهذه الحجة عجز وضعف وقصور السماء في أن تحيط بعلم الله وحكمته؛ إذ لو شاء الله لآمن من في الأرض جميعاً وجعل عليها ملائكة لا بشراً.

-حجاجة الشاهد الشعري: «يمثل الشعر حجة نقلية لها أثر فعال في الإقناع، فالشعر رافد من روافد بناء النص الحجاجي؛ لما له من أثر في النفوس»³ إلا أنه يعد أقل درجة

¹ - محمد المبارك، غريب الأنبياء في مناظرة الأرض والسماء، من كتاب: المفارقات والمناظرات، مرجع سابق، ص90.

² - محمد المبارك، غريب الأنبياء في مناظرة الأرض والسماء، من كتاب: المفارقات والمناظرات، مرجع سابق، ص90.

³ - أيمن أبو مصطفى، الحجاج ووسائله البلاغية في النثر العربي القديم، دار النابغة للطبع والنشر والتوزيع، ط1، 2018م، ص98.

من الشاهد القرآني، ومما وظفته السماء من الشعر ما جاء في قصيدة البردة للبوصيري لتستدل به على جحود وإنكار الأرض لفواضلها من ذلك :

قد تنكر العين ضوء الشمس من وينكر الفم طعم الماء من سقم
رمد

فالمآلات الحجاجية التي تروم السماء تحقيقها بفضل هذا الشاهد الشعري هو التأكيد على فعل الإنكار الذي يرتبط بالحسود، فهي تشبه محاسنها وفواضلها بضوء الشمس في الظهور وعدم الخفاء، وتشبه المنكر لذلك بالعين المصابة بالرمد والفم المصاب بالسقم.

حجاجية الأمثال : إن المثل هو «صياغة مسكوكة بدقة، لها عموما شكل استعاري يعبر بواسطته الذكاء الشعبي عن تجربته في الحياة»¹ المتأمل لهذه المناظرة يلاحظ أن الكاتب اغترف من وعاء الأمثال الشعبية التي تمثل مظهرا من مظاهر التراث الشعبي الذي يحظى بسلطة اجتماعية تسنح له بممارسة ضغط على الخصم لما تتمتع به من طاقات حجاجية إذ يجب «أن لا يغيب عن الذهن أن المثل يضرب ويؤتى به كشاهد أو لدعم موقف أو

¹ -فرانسوا مورو، البلاغة المدخل لدراسة الصور البيانية، تر: محمد الولي، عائشة جدير، أفريقيا

الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 22003م، ص51.

تصرف، أو لتبرير عمل ما»¹، فمن خلال خصائص المثل يمكن استخلاص أبعاده الحجاجية في هذه المناظرة المتمثلة في:

- تكثيف المعنى وتركيزه، فهو ذو بناء مقتضب وذو دلالة مركزة، لذلك فإن «حجاجا موجزا حسن الترابط أقرب إلى القبول وألصق بالذاكرة وأقدر على الإشارة من ثثرة مطولة»²

- التداول والاستخدام: إذ إن تبنيه من قبل أفراد المجتمع يجعله ذا سلطة مرجعية معترف بها وهو ما يعكس طابعه الحجاجي.

- يحمل المثل معنى مضمرا أبلغ من الصريح، يمكن استخلاصه اعتمادا على المعارف المشتركة بين المتناظرين،

- إنها ذات هدف تعليمي :

«أريها السهى وتريني القمر» يعد هذا المثل شاهدا حجاجيا لدحض ورد مزاعم الأرض ومغالطاتها من خلال تصوير المعقول بشكل محسوس تطمئن إليه النفوس وتدعن له العقول ويتقوى به الإدراك.

وقد جاء هذا المثل ليكشف الحيلة التي اعتمدتها الأرض من أجل إنقاذ ماء الوجه بخطاب تضمن فعلا لغويا تحقق عن طريق الاستفهام محاولة جر السماء للاعتراف بفضلها وحقيقة مكانتها وذلك في قولها «أما في بقعة من أشرف البقاع على الإطلاق لضمها أعضاء من تمم الله به مكارم الأخلاق؟ وفي روضة من رياض الجنة...»³ وفي ذلك تجاوز وتهرب من حجج الخصم، ولذلك يضرب هذا المثل لمن «يغالط فيما لا يخفى»، فجاء رد السماء بإلقاء هذا المثل الذي يحمل طاقة حجاجية تمثلت في إبطال مزاعم الأرض وإثبات انحسار رؤيتها للأمور والتغافل عن حجمها الحقيقي فيقولها «أريها السهى وتريني القمر»

¹-عبد الكريم عيد الحشاش، الأسرة في المثل الشعبي الفلسطيني والعربي، المطبعة العلمية، ط1، 1409هـ-1988م، ص4.

²- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط2، 2011م، ص37.

³--محمد المبارك، غريب الأنبياء في مناظرة الأرض والسماء، نقلا عن المفاخرات والمناظرات، محمد حسان الطيان، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ-2000م، ص99.

دلالة على أن بينهما بون شاسع في الرؤية؛ إذ أن السماء تحاول أن تربها الحقائق البعيدة والخفية عن الأرض في حين أن هذه الأخيرة تعتمد غير ذلك

«إياك أعني واسمعي يا جارة»¹ يضرب هذا المثل «لمن يتكلم بكلام ويريد به شيئا غيره»²

«من فعل ما شاء لقي ما ساء» «ليس من العدل سرعة العذل» «ما كل سوداء تمررة ولا كل بيضاء شحمة»

3.3. الأدلة العقلية: يقوم الحجاج العقلي في هذه المناظرة على العلاقة الاستدلالية القائمة بين أطرافها المتحاورة والتي تستهدف الإقناع. إذ تنبني المناظرة على نظام استدلال، فهي لا تستقيم إلا باعتماد الدليل، لذلك لم تكن هذه المناظرة خالية من الآليات الاستدلالية القياسية؛ لأن المناظرة خطاب العقل والأدلة لإثبات القضايا. ولتأكيد ذلك ما علينا إلا تأمل الأمثلة التالية التي شكلت صورا مختلفة للاستدلال.

❖ من أمثلة القياس الخطابي الوارد في المناظرة «وهل أنت أهل لمنافثتي في معاني الفضل والكمال؟ أو منافستي في مجال الحسن والجمال؟ وقد تفردت لا محالة في البهاء والملاحة، وانفردت بجمعي بين الحماسة والسماحة»³.

فالسؤال هو مقدمة صغرى تستدعي مقدمة كبرى مضمرة مفادها: أن الأرض أقل شأنا ولا يحق لها التصدي لمناظرة السماء، لتخلص إلى نتيجة تفردتها بجملة من الخصال كالهباء والملاحة والحماسة والسماحة؛ لذلك عليها غض الطرف عن مساجلتها.

ومن أمثلة القياس الخطابي أيضا، محاولة الأرض إقناع السماء بالإقلاع عن الادعاء بمكانتها الشريفة وتعجرفها. في ذلك قولها:

❖ «فأكرم به من نبي أسرني به وأرضى، وكيف لا فلولاه ما خلق سماء وأرضا؟ وجعلني له مسجدا وطهورا [...] فأنا بالفضل أحق»⁴

م.ك: أكرمها الله بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم.

م.ص: لولاه ما خلق الأرض ولا السماء.

ن: يحق لها المفاضلة وإثبات الفضل والكمال.

❖ «كيف لا أنفرد برتبة التفضيل، وغذاء أهلي التسبيح والتهليل؟ وهم سفراء الحق وأمناء وحيه الرفيع»⁵

خاتمة

نخلص في نهاية هذه الورقة البحثية إلى جملة من النتائج التي تشكل عصارته وتتمثل في: تشكل المناظرة تربة خصبة لإنتاج الحجج، وقد عبرت عن هذه الحجائية بأشكال وأساليب متنوعة، هدفت إلى الإقناع والإفحام في الوقت ذاته ببراهين وأدلة منها ما هو نقلي ومنها ما هو عقلي.

- تتمثل العلاقة بين الحجاج والمناظرة في كونهما ينبذان العنف وهو ما يعني عدم اللجوء إلى القوة لتغيير رأي الآخر، بل يقومان في نهاية المطاف بالاعتراف به وبأفكاره ومحاولة تعديلها عن طريق مخاطبة قدراته العقلية والعاطفية وحتى المنظومة الاجتماعية التي يستقي منها خبراته.

لعب الشاهد القرآني دوراً إقناعياً في تسويق المواقف؛ حيث توجه بشكل أساسي إلى تقرير الحقائق ودفع الاعتراضات المحتملة في ذهن المعارض، مما يضفي على الموقف قوة سلطوية ترفعه إلى درجات أعلى.

اشتغل الشاهد من الحديث في هذه المناظرة، لإضفاء بعد أخلاقي للحجة في سياق الرد على السماء، ليظهر من خلاله العمق العلمي والديني الذي لا يسع كل الناس بل هو للمتمرسين والحقاق في علوم الدين.

¹-المرجع نفسه، ص 89.

²-محمد بن عقيل موسى الشريف، معجم المصطلحات والتراكيب والأمثال المتداولة، دار الأندلس الخضراء، جدة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1419هـ-1999م، ص52.

³- محمد المبارك، غريب الأنبياء في مناظرة الأرض والسماء، من كتاب: المفارقات والمناظرات، تح: محمد حسان الطيان، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ-2000م، ص104.

⁴- محمد المبارك، غريب الأنبياء في مناظرة الأرض والسماء، من كتاب: المفارقات والمناظرات، تح: محمد حسان الطيان، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ-2000م، ص95.

⁵- محمد المبارك، غريب الأنبياء في مناظرة الأرض والسماء، من كتاب: المفارقات والمناظرات، تح: محمد حسان الطيان، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ-2000م، ص92.

من بين ما حاول الشيخ محمد المبارك أن يثبته من خلال هذه المناظرة هو إظهار قدراته الشعرية والبلاغية التي تعد من بين المداخل اللغوية التي تجذب المتلقي وتستميله، فقد كان لها دور بارز في إثبات الحجة أو دحضها.

ما يميز هذه المناظرة هو الحضور المكثف للأمثال الذي منحه دلالة مركزة ومعنى أبلغ تنقاد إليه الأنفس.

وبهذا كانت هذه المناظرة في عمومها غنية فكريا ومعرفيا، فكانت بمثابة الوعاء الذي ينهل منه المتلقي فنون الأدب وعلوم الدين في الوقت ذاته لاستلهاام العبر.

المصادر والمراجع:

1. أيمن أبو مصطفى، الحجاج ووسائله البلاغية في النثر العربي القديم، دار الناغبة للطبع والنشر والتوزيع، ط1، 2018م.
2. راغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مكتبة نزار، تحقيق مصطفى الباز.
3. عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الشعب، ص422.
4. روبر بلانشي، الاستدلال، تر: محمود اليعقوبي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 1424هـ-2003م.
5. سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط2، 2011م.
6. سيد أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، ط27، المكتبة التجارية الكبرى، مصر 1389هـ-1969م.
7. الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتصدير، القاهرة.
8. صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط2، 2007م.
9. طه عبد الرحمان في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000م.
10. عبده الراجحي، التطبيق الصرفي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2000م.
11. فرانسوا مورو، البلاغة المدخل لدراسة الصور البيانية، تر: محمد الولي، عائشة جرير، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2003م.
12. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب. دار صادر، بيروت، (د س ن).
13. عبد الكريم عيد الحشاش، الأسرة في المثل الشعبي الفلسطيني والعربي، المطبعة العلمية، ط1، 1409هـ-1988م.
14. عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1434هـ-2013م.

15. محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، (د.ط).
16. محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2002م
17. محمد المبارك، غريب الأنبياء في مناظرة الأرض والسماء، من كتاب: المفاحرات والمناظرات، تح: محمد حسان الطيان، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ- 2000م.
18. محمد بن عقيل موسى الشريف، معجم المصطلحات والتراكيب والأمثال المتداولة، دار الأندلس الخضراء، جدة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1419هـ- 1999م.
19. محمود إسماعيل صيني وآخرون، معجم الأمثال العربية، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط1، 1996م.